التهديد الإسلامي: وهم أم حقيقة؟ (*)
(جون أسبوزيتو)

مراجعة رضوان السيد

تتالت في السنوات الخمس الأخيرة كتب ج. أسبوزيتو عن الإسلام الحديث. والكتاب الذي تنظر فيه هنا هو آخر كتبه. وهمُّهُ كما يبدو من العنوان معالجة مسألة الأخطار التي يقال إنها تهدد الغرب من جانب «الأصولية الإسلامية» الصاعدة. هذه الأطروحة التي كانت تستندُ إلى اعتبارات استراتيجية وجيوسياسية ناجمة عن انهيار الاتحاد السوفياتي، وتضخم عدد الأقليات الإسلامية في البلدان الغربية، وصعود «الأصولية الإسلامية» المعادية للغرب ـ بدأت تجد لها أساساً أو تأصيلاً ثقافياً من خلال أطروحة صامويل هانتنغتون Samuel Huntington الجديدة عن «الصراع بين الحضارات». وأكثر الحضارات المقاومة للتغريب تقع في آسية وعلى رأسها الحضارة الإسلامية. واسبوزيتو لا يعالج هنا أطروحة هانتنغتون مباشرةً. بل يتصدَّى للفكرة نفسها بالنقد والتفنيد. فهو يرى في التقديم أنه ليس للإسلام كدين وكثقافة موقف سلبي من الديمقراطية وحقوق الإنسان. ثم إنه لا يعتبر التسمية «أصولية» صحيحة، ويؤْثِرُ عليها التسمية بالإحيائية او الفعالية ذلك أنّ لمصطلح «أصولية» معناه المحدَّد ضمن التاريخ البروتستانتي وهو لا ينطبقُ على ظواهر الإسلام المعاصر. بعدها يتصدى الباحث لبيان

(*) مراجعة كتاب: John L. Esposito, the Islamic Threat: Myth or Reality? (New york: oxford univertity Press, 1992). PP.243.

أسباب عِلَل ظهور «الإحيائية الإسلامية» والإسلام السياسي. فقد نهض العرب والمسلمون الآخرون بعد الاستيلاء الاستعماري ليحاولوا التحرر من قبضته، وإنشاء اجتماعاتٍ وكياناتٍ جديدة ومستقلة. لكنّ مشروع «الدولة» أحاطت به صعوباتٌ جمةٌ هُمّشت في سياقها جماهيرشعبية واسعة هي التي تحركت في أوساطها الإحيائية الإسلامية. إذ وسط الكوربوراتية الوطنية والقومية السائدة جرى تجاهُلُ مسائل رمزية ذات معنًى كبير تتعلق بالهوية الثقافية والأصالة ورؤية المرء لذاته ودوره. وعندما فشل المشروع الوطني والتنموي ولم تبق غير الأنظمة الشمولية وجدت الأسئلة الرمزية حول المعنى والهدف أجوبةً جاهزةً لديها في الدين. فَعِلّةُ الفشل في مواجهة إسرائيل، وتحقيق الوحدة، والتنمية؛ البُعْدُ عن الله . والعودةُ إلى اللّه في نظر الإحيائيين كفيلةٌ بانتصار الهوية، والقوة والقيم الإسلامية. ولا يعتبر لإسلاميون انفسهم أعداء للثقافة أو التقدم إنما يرفضون «التغريب» و«العلمنة»؛ اللذين يعنيان خضوعاً للغرب وقيمه ومصالحه بعد ان ناضل المسلمون والعرب طويلا للتخلص من سيطرته. ويلاحظ المؤلّف أنّه من الأدلة على أنّ هذه الظاهرة تتعلق بالهوية والكرامة الجريحة أنه في مطلع التسعينات ما بقيت الإحيائية قاصرةً على المهمَّشين اجتماعياً واقتصادياً بل شملت سائر الأوساط والطبقات. واستتبابُ «الأسلمة» أو مظاهرها ضمن الاتجاه السائد في الإسلام السائد (السُنّي) هو الذي أثار مخاوف الغربيين من باحثين وصحفيين ومراقبين الذين كانوا يُعزُّون أنفسهم من قبل بالقول إنّ «الأصولية» هي من عمل «عصابات صغيرة من المتطرفين والإرهابيين».

وفي محاولةٍ لوضع العلاقات الإسلامية / الغربية في إطارها التاريخي الصحيح يعقد المؤلف فصلاً قصيراً لتتبع تاريخي للمسألة منذ ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي. والفصل ـ كسائر الكتاب ـ ليس موجَّهاً للمختصّين؛ ولذلك يلخّص تلك التصورات في زُهاء العشرين صفحة تسودها الأحكام العامة والشاملة التي لا تصح في كثيرٍ من الأحيان. ويصل المؤلّف في نهاية الفصل إلى حكم مؤداه أنّ أوروبا كانت لحوالي عشرة قرون «تحت الحصار» من جانب عالم الإسلام ودُوَله إلى أن اكتمل الانقلاب وبدأت تظهر نتائجه في القرن الثامن عشر. وفي القرن التاسع عشر احتلت أوروبا أكثر ديار الإسلام في آسية وإفريقية بعد أن كانت قد قضت على جيوب الإسلام في أوروبا ـ أو أكثرها ـ قبل ذلك. بيد أن الحداثة والرأسمالية اللتين أتتا مع الاستعمار أعطتا كل شيءٍ بُعْدَهُ الخاصّ والعميق. فقد شمل الاستعمار هذا كل شيءٍ بما في ذلك الثقافة وأعماق

الروح الإسلامية. ويضع اسبوزيتو استجابات أو ردود أفعال المسلمين المختلفة على الغرب تحت عدة عناوين: رفض، انسحاب، علمنة، تغريب، وإصلاح إسلامي. وكل هذه الظواهر كانت أدوات أو آليات أو محاولات من جانب المسلمين لاستعادة أنفسهم وثقافتهم وعالمهم السليب. وقد نجح حركات التجديد والإصلاح في استعادة الاستقلال السياسي. لكنّ المسلمين كانوا قد صاروا جزءًا من «العالمية» الغربية التي لم يستطيعوا منها فكاكاً بمعانٍ شتى ومن أهمها المعاني الاقتصادية والثقافية والعسكرية. وقد أنهت هزيمة العام 1967 كل أوهام إمكان «النِدّيّة» و«التحرر» وفتحت المجال لإعلان الإسلام الإحيائي ثم السياسي عن نفسه.

هذا التحليل الشامل للعلائق وتشابكاتها تتلوه في الكتاب دراسةُ حالاتٍ من عدة دول هي: ليبيا ومصر والسودان وإيران. وقد عُني الكاتب بإيران بالذات باعتبارها نموذجاً لبلدٍ إسلاميٍّ سيطر فيه الإسلامُ الإحيائي ذو الوجه السياسي. وقد حاول المؤلّف في نماذج إيران وليبيا والسودان أنّ هذه البلدان في سلوكها تجاه الدول الغربية إنما كانت تحاول حفظ مصالحها الوطنية بطريقةٍ أفضل مما كان عليه الحال سابقاً. فإسلاميتُها ليست إسلاميةً مثاليةً أو شرِسة تجاه الإسلام والغرب بقدر ما هي راديكالية وطنية. ومن الدول والنظم ينتقل الكاتب إلى أفراد المفكرّين؛ فيذكر أن الإحيائية ليست عنيفةً في أكثرها. ثم يعرض نماذج للراديكالية الإسلامية من خلال فكر كلٍّ من حسن البنا وأبي الأعلى المودودي وسيد قطب. لكن رغم التركيز على هؤلاء فإنّ الكاتب لا ينسى الألوان الأخرى على الساحة العربية الإسلامية. فهناك اهتمامٌ بحزب الله وحركة أمل بلبنان، وبحركة النهضة في تونس. وبالنسبة لحركة النهضة بالذات يحاول الكاتب أن يوضّح أن تصرفات النظام أرغمت أحياناً على اللجوء إلى الراديكالية. لكنه لسببٍ ما تجاهل تطورات الوضع في الجزائر بين العامين 1989 و 1992 رغم أنّ ذلك كان يمكن أن يخدم هدفه في وضع الأمور في سياقها التاريخي والاجتماعي والسياسي.

أما فصل الكتاب الأخير فيتكون من «لمحات» عما اعتبره اسبوزيتو أحداثاً بارزةً بين 1988 و1992 من مثل: رؤى الوحدة الإسلامية، وقضية سلمان رشدي،والإسلام في حرب الخليج الثانية 1991؛ وهي «لمحات» لا أرى أنه وُفّق كثيراً فيها بسبب التسرع والإيجاز وإطلاق الأحكام. لكنه في فقرةٍ طويلةٍ عن «الإسلام والديمقراطية» أفكر أن يكون الإسلام أو المسلمون ضدّها. ورأى أنها صارت جزءًا من الثقافة السياسية. وسيقبل المسلمون بمختلف فئاتهم (وقد بدأوا فعلاً) على صناديق الاقتراع لاستعادة

أصواتهم ومرونة الحركة في اجتماعهم.

إنه ليس هناك تهديدٌ إسلاميٌ للغرب. إنما هناك محاولاتٌ كثيرةٌ تتّسم ببعض التخبُّط لصياغة مستقبلٍ مستقلٍ وكريم.